سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي

مطبوعة بيداغوجية

إعداد الدكتور الطيب صيد

المعارف للطباعة

الطبعة الأولى: 2017

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الباب الأول:

الرابط الاجتماعي إطاره المعرفي والاجتماعي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول

مدخل معرفي لدراسة الرابط الاجتماعي

يكاد يختصر دوركايم الاجتماع الإنساني وظواهره فيما ينتج أثناء العلاقة الجدلية بين الوعي الفردي والوعي الجمعي. لكن من النقاط التي تقع في صلب التأسيس لعلم الاجتماع حسب مؤسسه هو وصف سيرورة الانتقال من حياة الجماعة الى حياة المجتمع.

نجد بعض الكتابات المفصلة والمتحدثة عن بنية الموضوع السوسيولوجي ،توظف مفهومي الجماعة والمجتمع بصفة متداخلة فأحيانا نجدها تذكر المجتمع كموضوع لعلم الاجتماع، لكن في أحيان أخرى نجدها تتحدث عن الجماعة كموضوع له وللنظر في هذه القضية. نجد مثلا بعض الكتابات المفردة للفكر الدوركايمي أيضا تقفز بين المفهومين وعندما نؤكد على دوركايم فلأن وضع الفارق بينهما في فكره يعد مطلبا أبستمولوجيا ونظريا لا يمكن اختزالها أو تجاوزه.

ليس الخلاف بين مفهوم الجماعة ومفهوم المجتمع اعتباطيا وليس مسموحا بالتالي الخلط في استخدامهما، حيث لو تتبعنا منشأ الفكر الاجتماعي الغربي في قضية الرابط الاجتماعي بين الفرد والجماعات التي ينتمي اليها، سنجد الموضوع ذو علاقة مباشرة بفلسفة الدين والاخلاق التي تؤطر المفكرين، وعليه ولأهمية مصطلح الجماعة في الخطاب الديني فإن دوركايم وبحكم اعلانه أنطولوجيا ضرورة تعويض الاخلاق الدينية المميزة للجماعة أو الجماعات الأولية بدين المجتمع، ما يعني تعويض الاله بالمجتمع والضمير الديني بالضمير الجمعي يكون قد قرر ذلك كمؤشر أساسي لدخول الأفراد في نظام اجتماعي يتميز بالوظيفية والعلاقات العضوية.

فلقد فقد مفهوم الجماعة فعاليته حسب دوركايم في مرحلة الحداثة ولذلك كان قد وظفه في معرض حديثه عن المجتمع الميكانيكي، وسرعان ما تحلل هذا المفهوم لدى الغرب لصالح مؤسسات وبقيت مسألة القيم الدينية توظف منتقصة من اطارها العاطفي، في فكر الوجوديين الألمان. سنحلل هذه المسألة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجدلية من باب التأكيد على أنها ذات فائدة ابستيمولوجية، صبت لصالح بن خلدون الذي أقصي من جدلية بناء الفكر السوسيولوجي بسبب فكرة الموضوعية الوهمية التي أقصته بحجة التأسيس الديني القيمي لفكره.

1. أي علاقة بين الجماعة و المجتمع

سيكون هذا السؤال موجه هذه الدراسة، حيث أن كاتبا من بيئة المجتمع الغربي أو الانتماء الاثني الذي تعد مسألة العصبية فيه من ارثه المفهمي (ان كان يطمع المصالحة مع بالذات) يتوجب عليه الحذر من قوانين التغير الاجتماعي ضمن مؤشر الجماعة والمجتمع.

ان التراجع عن مفهوم الجماعة، لم يكن مجرد صدفة وانما هو خيار انقلابي على تعاليم نظريات العقد الاجتماعي، التي ولدت الثورة الفرنسية فاستمرار نشاط الجماعة بالمفهوم الديناميكي للكلمة، سيكون لصالح زيادة الألفة بين الافراد والاحساس الحر الانقسامي، حسب بنية الجماعة وموقعها من لعبة المصالح الثورية والمكاسب الاجتماعية العامة. لذلك وبتوجيه سياسي كان التفكير في تكسير بذور تلك الروح الثورية، من خلال اجهاض الروح الجماعية واعادة بناءها حول مشاعر تسمى بالمشاعر الجمعية النظامية بدل المشاعر العاطفية .

في هذا السياق يقرأ "جورج لا بآساد" تأسيس النظرية السوسيولوجية من خلال ما صاغه". كل من بونالد وجزف دوميستر، سواء في ألمانيا أو في روسيا نظرية تدعو للعودة الى النظام الديني، وهي المسماة "بالنظرية التصحيحية" وقد ادت هذه النظرية الى ازالة ما تبقى من مؤثرات الفكر الثوري ، الذي كان لا يزال في ظل حكم نابليون. إذ حاول أصحاب هذه النظرية القضاء على أفكار روسو الذي اعتبر ملهم الثورة الفرنسية ومحرضها على الصعيد الفكري." (لاباساد، مقدمات في علم الاجتماع(ترجمة هادي ربيع)، 1982، صفحة 38)

من هنا يمكن لنا أن نتصور أن اقتران علم الاجتماع في نشأته بمفهوم المجتمع لم يكن مؤسسا ابستيمولوجيا، على أسس علمية تصف الوجود الواقعي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما يطلق عليه مجتمع. لذلك سنناقش معضلة معنى المجتمع وما أثارته في الخطابات الأكاديمية من ارتباكات لم تجد حلا لحد الآن في معرض هذا الكتاب.

بالعودة الى السياق العام الذي جعل المنظرين لعلم الاجتماع وعلى رأسهم دوركايم يقررون بصفة انطولوجية، إعادة النظر في مسألة الأخلاق الدينية وارتباطها بالجماعة في ما اسماه المجتمع الآلي، هي في حد ذاتها خطوة تمهيدية لإعطاء مبررات على ضرورة استخلاف تلك الاخلاق الدينية بالأخلاق المجتمعية أو الضمير الجمعي وهي في الحقيقة اخلاق افتراضية تصف الطموح الدوركايمي أكثر من ما تصف واقع الأمر.

بالصورة التي أراد رسمها دوركايم لنشأة موضوع علم الاجتماع على أساس بنية المجتمع الرأسمالي، القائم على التقسيم الاجتماعي للعمل يكون قد رسم على شاكلة ماركس، طريقا واحدا أمام عجلة التغير الاجتماعي، تصب أحداثه الاجتماعية في قالب افتراضي وهو المجتمع، الذي تزول فيه قيم الجماعة المبنية على التضامن العاطفي لتحل محلها قيم التضامن العضوي الذي يكون مصاحب لارتفاع الأنانيات بفعل التخصصات والمواقع الاجتماعية المختلفة.

سرعان ما أصطدم النموذج الدوركايمي بالنموذج الماركسي حول هذه السيرورة وفي هذه المسألة بالذات، مما أحرج الثبات في النظام وتوازنه الوظيفي الذي صوره دوركايم كنموذج واحد للنظام الاجتماعي الجديد، الذي سيعم أوربا الرأسمالية وكل العالم القادم على السير في نهجها. في حين لم ير ماركس في ذلك الا تكريسا للغطرسة وللاستغلال ونقص في الاخلاق الجمعية، مما يتوجب حسبه العودة لقيم الطبقة وبالتالي العودة بمنظور آخر لقيم الجماعة بعيدا عن الدين سواء الميثولوجي أو الجمعي على أن تكون الشروط المادية هي المتحكمة الوحيدة في بناء الوعي وتوجيه المشاعر الجماعية داخل الطبقة.

أمام هذه المسألة المبدئية نتساءل عن مشروعية الموضوع العلمي لعلم الاجتماع في نقطة الموضوع، وسنحاول مراجعة مدى ثبات أو صدق الادعاء بالموضوع الاجتماعي أم الأطروحات الحديثة التي بدأت تتراجع بنوع من الاحتشام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن مقولة المجتمع ولكن بالعودة للفرد وهذه مسالة خلافية سنحاورها بعد أن ننتهي من محاورة المسألة الأولى التي يتواجه بها المجتمع مع الجماعة.

هذا يفتح لنا الباب ويعطينا المشروعية الابستيمولوجية المفقودة دوما بسبب عائق الموضوعية الانطولوجية، التي بث روحها دوركايم طيلة قرنين والمبنية أصلا على مقولة المجتمع محل النقد، الذي سنعرضه عبر هذه المناقشة لموضوع الرابط الاجتماعي، مما يسمح باستدعاء بن خلدون وبكل أحقية فكره ومداخلاته للبث في هذه المسألة، بعيدا عن أي تحيز وسنتعامل معه كمؤسس لعلم العمران البشري في مسألة بنية الموضوع ومحل مسالة العلاقة بين الجماعة والعصبية في علمه الجديد .

طبعا وبالعودة لدوركايم، فإنه قد قدم تبريرا لإنتاج فكرة المجتمع وهو الرغبة في تحقيق الحرية للأفراد، والتي لا يرى لها من سبيل الا عن طريق الفعل المجتمعي كشرط أساسي لتحقيقها. اذ أن بهذا الفعل يكون الخلاص من العالم الطبيعي اللاأخلاقي والعبثي .

بواسطة الفكر الوضعي القائم على العقلانية، يعتقد دوركايم أن الدعامة الفكرية لإدارة سيطرة الانسان على الطبيعة، أصبحت أمرا ممكنا على اعتبار أن المجتمع هو الاطار الوحيد الذي يمكن الفرد من خلاله السيطرة على الطبيعة "ان الخضوع للقواعد وامتثال الذات للجماعة أمور تجعل من الفرد بشرا عقليا حيث يحث الانضباط الاخلاقي الفرد على انجاز طبيعته بوصفه انسانا" (م.ليمان، 2013، صفحة 183) ويمكن بالتالي من خلال هذه المصادرة، الاستنتاج بأن علم الاجتماع الدوركايمي يهدف الى تخليص الفرد من وهم الحرية وجعل حريته الحقة هي في الانضباط والالتزام بالقيم والمعايير التي حددها الضمير الجمعي.

نلاحظ أن ورود الرابط الاخلاقي يرافقه في فكر دوركايم الحداثي كلمة الجماعة. لكن دون وضع الفرق بين الجماعة بالمعنى الآلي والجماعة بالمعنى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لعضوي، حيث لم يعد يمكن الاعتقاد في أن توظيف كلمة جماعة ومجتمع بين
يعني المجتمع اللذان حددهما دوركايم يتم بطريقة عشوائية.

فلفظ جماعة ارتبط لدى دوركايم في كلتا الحالتين بالأخلاق لكن لحل
التناقض بين قناعاته الدينية ومنطلقاته الابستيمولوجية راح دوركايم يفرق بين
الاخلاق الدينية والاخلاق البديلة لها في المجتمع العضوي وهي الاخلاق المجتمعية.

وطبعا وضمن السلسلة المعرفية لهذه المصادرة. كان لزاما أن تكون وحدة
التحليل السوسيولوجية لدى دوركايم هو الفعل الاجتماعي. فإلى أي مدى يعبر
الفعل عن الحقيقة الاجتماعية، اذا لم نحسم مسألة واقعية التضامن العضوي
للمركبات المتفرقة للمجتمع؟ خاصة مع العلم بحقيقة الانانية والفردانية التي لم
يثبت قط تخلص الانسان منها لذلك اعتقد Tönniesأن التفرقة بين الجماعة
والمجتمع وجب أن يتم ارفاقها باستبدال مقولة الفعل الاجتماعية كوحدة للتحليل
بالرابط الاجتماعي كوحدة تحليل واقعية.

كذلك فإن مستويات الفعل لدى الجماعة، قد تكون أخلاقية في المبدأ
وليس في الممارسة وعليه فالمبررات الأخلاقية للفعل الجمعي، ربما تظهر في
المواصلة على ذلك المبدأ ولكن ولضعف المنطق الأخلاقي فإن الافعال تخرج عن
المقاصد الأخلاقية العامة المحددة دينيا.

لذلك نستطيع أن نستنتج أن علماء الاجتماع المحدثون كانوا يتفادون
السير وراء المبررات الاخلاقية غير معروفة النهاية، لان السياقات الخاصة بالفعل
واحتمالية عدم التحكم في النتائج قد يؤديان الى ديكتاتورية تتغذى من الحدود
الاخلاقية التي تعد أصولها دينية.

لذلك كان دوركايم قد أرفق مشروعه السوسيولوجي بمد جسور له مع
الموضوع الاخلاقي، بهدف التحكم في ضبط العلاقة بين المحددات الأخلاقية
والأبعاد الاجتماعية.(sociologie et moral, p. 86)

ان انخراط الاخلاق بين حدين ديني الاله أساسه واجتماعي المجتمع
أساسه، جعل العديد من الفلاسفة يعتقدون أن الانسان، أصبح بديلا في عصر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحداثة للإله، كونه يمكنه توليده أخلاقه في صلب الضمير الجمعي كعالم شيئي حسب التعبير الدوركايمي. حيث يضفي ذلك الى الاحتكام الى العقلانية في فهم الطبيعة المادية والانسانية وبالتالي تعريف الفعل الاجتماعي بعيدا عن القيم لتبقى حدسية النفس البشرية في ادراك الحقائق القصوى للوجود الاجتماعي وتأويلاته نسبية جدا.

غير أن هناك معضلة معرفية وابستيمولوجية نلخصها في التساؤل التالي أين يوجد النموذج الانساني الذي يمثل بحق الدين الجديد؟ على اعتبار أن نموذج الانسان الكامل هو مقياس الاشياء كلها....وليس انسان اخر من يتكلم عنه كما فعل هتلر ، حينما قرر أنه يجب على الانسان أن يبحث عن نموذج له في عالم تحكمه القوة، أو كما تصوره ديكارت حين اعتقد بضرورة انصياع الانسان لقوة قاهرة فوق الجميع لفك الجدل القائم حول مصير العالم، الذي لا يبدو واضح المعالم، وليس بيد الانسان الذي هو ذاته غير قادر على السيطرة على معقوليته، وبالتالي غير قادر على حيثيات التوازن في مجال العلاقات التبادلية وهذا الحل في ذاته هو تناقض مع دين الحرية الانسانوية. (بوخريسة، مذاهب الفكر الأساسية في العلوم الإنسانية، 2013، الصفحات 138-139)

في المقابل وامتدادا لهذا الموقف الابستيمولوجي، نتساءل عن معنى الجماعة المقصودة في التحليل المعارض للتحليل الدوركايمي، على أساس أن مفهوم الجماعة لم يكن يحظى بالمراقبة المنهجية والتحقق الابستيمولوجي رغم حساسية هذه الكلمة وتحكمها في مسار التحليل السوسيولوجي برمته. فعلى سبيل المثال جاء في كتاب علم الظواهر الاجتماعية لعنصر العياشي مصطلح المجتمع والجماعة غامضا فمثلا يستند الى وصف دوركايم للظاهرة الاجتماعية..." (عنصر، 1990، صفحة 74) اذ أنه بإمكاننا التمييز بين القسر الممارس علينا كأفراد من طرف الوعي الجمعي للجماعة أو المجتمع المتجسد في الدين، العادات والقانون وغيرها... وفي موضع اخر من نفس الكتاب يفرق العياشي عنصر بين الحشد والجماعة، من خلال ان الاول يتعرض للتيارات الاجتماعية اما الثاني فهو معني بالظاهرة الاجتماعية، وهذا طبعا بالرجوع الى أفكار دوركايم ذاته طما دونها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في كتباه علم الظواهر الاجتماعية..." (عنصر، 1990، صفحة 76). رغم أن الغرض من هذه التحديدات حسب صاحب المؤلف هو حرص دوركايم على ابراز الخاصية الاجتماعية للظواهر التي لا تدخل لا في القسر الطبيعي أو النفسي الا ان مسألة العلاقة بين الجماعة والمجتمع لم تحسم ضمن هذا التحديد المعرفي للظاهرة الاجتماعية.

نعلق بهذا الصدد بما يلي :ان التأثيرات الدينية والعقدية هي اجتماعية دون شك ولكنها نابعة من جماعة بالمعنى الحقيقي للكلمة، أما المجتمع وبالعودة للمبدأ الدوركايمي ينتج من خلاله ضميرا جمعيا قسريا ولكن ليس بالمفهوم الديني المتعارف عليه. هنا يظهر عدم الفصل بين المرحلة الجماعية والمرحلة المجتمعية لحياة الفرد وفي رأينا يعود ذلك لعدم الفصل في العلاقة بين مفهوم الجماعة ومفهوم المجتمع، في التحديد الدوركايمي ذاته. ففي معرض حديثه عن الدين وقيمته في بنية المعرفة والفعل لدى الافراد فرق دوركايم بين ثلاث مفاهيم جوهرية . Agrégationويتميز التجمع البشري فيها بالعرضية والحيوانية، وعندما ينخرط الناس في ممارسات الطقوس الدينية على محور الطقس الطوطم وهو مصدر المقدس، وشعار التجمع ليشكلوا Communauté التي تتميز بالانبثاق الاخلاقي لدى الأفراد وارتفاع مستوى الانفعالات والمشاعر المشتركة لتنشأ منها المعرفة الاجتماعية كتتويج عقلاني يعكس الارتباط الوثيق بين الادراك الديني والعقل الاجتماعي وهو(www.bsociology.com/2016/blog-post.html, 2016) ارضية لبناء صرح الاله الجديد كاستمرار وجداني عقلاني للتشكل الاجتماعي وهذا الاله هو المجتمع.

هذا التحديد لم يمنع Gurvitch من الانتباه الى خطورة الخصائص الثنائية في مفهوم الجماعة. حيث أن له تحديد آخر لمفهوم الجماعة إذ يرى أنها تأخذ معنى "Communauté"والتي في تحليله تتميز بالتخالف في الحالات والادعاءات العقلية ، وهو مفهوم يؤدي الى الاستخدام الضيق للكلمة أو للاستخدام الغير دقيق ولقد قدم مفهوم آخر وهو مفهوم communion"" بمعنى المشاركة والتي يفيد معناها درجات عالية من الذوبان والمشاركة لأعضائها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالضبط هناك وفق التداخل الذي يميز مفهوم Communauté ومفهوم communion والذي يعطي مشروعية لتساؤلنا حول بنية هذا المفهوم الجوهري كإطار مرجعي تقربا به تاريخ المعرفة السوسيولوجية.

2. وجود الجماعة مرهون بالصراع

يتضح ان تعريف المجتمع بصيغة دوركايم تخفي اضافة لتاويلاتها المعرفية والابستيمولوجية، اغراضا سياسية وهي البحث عن ميكانيزمات توفر الانظمة الراسمالية الاستقرار وطابع الشمولية. لذلك "فإن دوركايم ناضل لأجل محاربة الاعتقاد بأن كل الأشياء تحمل وعيا وارادة فردانية" (Sous la direction de Jacque bouteiller, Par Paul Bouffartigue et d'autres, 2009, p. 43) هذا المنعى الذي لا يتفق مع البنية المعرفية والتفاعلية الواقعية، التي يحملها مفهوم الجماعة اذ ان أن هذا الأخير يعطي للفرد بصيغة سوسيولوجية، المركزية التفاعلية لتكون الجماعة الواحدة، حاضنة له بهذه الفردانية في إطار بحث مستمر عن ضبط رؤيتها للعالم، في مواجهتها لبقية الجماعات بفردانيات تتجلى على نحو مناقض لبقية الجماعات وجدانيا..

ان المجتمع بهذا الشكل ما هو عند الدعاة الذين يقفون لجانب سيطرته على الافراد، الا واجهة لاحتلال مسار سياسي ايديولوجي اكثر منه تكريسا لرؤية واقعية للعالم، لأن هذا العالم في الاول والاخير عبارة عن منتوج جماعي للأفراد، وهو قابل للتعديل واعادة التشكيل وفق المستجدات الثقافية والتحديات والتهديدات القائمة حول الجماعة وليس حول هالة من التعريفات الانطولوجية المحاطة بهذا الوجود التفاعلي الواقعي. لذلك سنجد مدخلا مناهضا لهذا التوجه وهو مدخل الصراع اين سنخوض مقابلة داخلية بين رواده ونقصد هنا المؤسس بن خلدون ممثل الصراع في مقابلة المؤسس دوركايم ممثل الثبات ومن ثم اعطاء التاويل البديل لبنية النظرية السوسيولوجية بالعودة الى وحدة تحليلي الجماعة وليس المجتمع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner